

نجوم الثلج الآتية

المرأة :

كل شيء هادئ .. الرياح .. الأشجار .. حتى الطيور تركت
أجنحتها مفتوحة لتنساب في الفضاء بهدوء وصمت . حينها شعرت
المرأة بالبرودة تسري الى أوصالها وذرات الخوف ترسب في قلبها ،
فتذكرت حديثها مع زوجها حين رحل .. قال :
- عندما يحترق كل شيء لا يشعر المرء بالخوف ، فالنار لا تدع
الخوف يترسب في القلب ..
- اني خائفة لا تذهب ..
- عيون الشيخ مزروعة في جدران كل بيت ..
- لا تذهب ..
- متى كانت الحرب تدع الفرد منا يتحكم في سلوكه ؟ فانا ايضا
لا اريد ان اموت ..

- الجنود يتجولون في الطرقات ، وانا وحيدة ..
- لا تخشي شيئا .. انهم مثلنا غير متحكمين في سلوكهم ..
أفافت من تأملاتها حين سمعت صوت طرفات خائفة على الباب ..
فتحتنه ، فدفق جندي طويل وأغلق الباب وراءه ..
دهشت المرأة ، كانت نظراتها أسئلة متلاحقة تصفع وجه الجندي
الذي أخذ يعيث ببندقيته ..
- ماذا تريد ؟
قال الجندي بتردد :
- أنا أكره الحرب .. وجئت كي أتحدث معك ..
تأملت المرأة وجه الجندي ، وجدته مشابها لوجه زوجها ..
الجبين المنعب .. النظرة الصارمة .. الحزن الذي يلف وجهه .
سألته برفقة :
- هل تشعر بالخوف ؟
حدق الجندي في عينيها ، شعر انها تعرف الكثير ، ابتسم
ثم قال :

- لا أعرف . فانا لست ممن يختارون الحروب ..
صرخت :
- من يختار اذن ؟
.....
ابتسمت ، فتقدم الجندي حتى لامست أصابعه شعرها الطويل .
نظر اليها وقال :
- انت جميلة ..
لم تقل شيئا ، لان أنفاس الجندي كانت تلفح بشرتها الرقيقة
وهو يمتص رحيق النرجس والأزهار البرية من شفيتها .. بعدها
شعرت انها تمدو في عالم يصبح فيه الخوف والحرب لوحات تلهب
جو المكان بأحاسيس ترفص فرحا .. حبا .. موتا ..

قالت المرأة للجندي :

- يجب أن تذهب ..

لماذا ؟

- شعرت بالاطمئنان ..

- متى تكونين خائفة اذن ؟

ابتسمت المرأة وهي تقول :

- لا أعلم ، اذهب ..
- أريد ان أبقى هنا ..
- اني متزوجة ..
- لم أغفل شيئا ..
- لك وجه صياد ، هل تعرف أغاني الصيادين ؟
- لا ..
- اسمع اذن ..
كان صوتها يعمل عقب الارض والثلج .. عميقا بعيدا كالسما ..
شامخا كالجبل .. ملتها بالحرب :
لان الوحوش المفترسة تخشى الصيادين
يرقص الجبل وحده ..
لان صوته جميل ، يهمني الثلج
فانا بانتظار نجوم الثلج الآتية .

الرجل :

الصيد .. الموت .. الرياح التي تكاد تقتلع أشجار الصنوبر ..
السقوط في الانهار عند نقل الجثث .. كلها أمور اتادها ففقد لديه
شعور الدهشة والتحمس .. ولا شيء غير الانتظار واحراق كمية اكبر
من التبغ ..
حوله كان الرجال جالسين ، ينظرون الى سخور الجبل السذي
يفصلهم عن القرية .. قفز أرنب بري من وراء صخرة وأخذ يعدو
صوب النهر .. ضحك الرجل طويلا .. سألهم أحدهم :
- ما بك ؟

أشار الرجل الى الأرنب ثم قال :
- كنت أحبس أنفاسي بانتظار صيد كهذا .. وهو الآن يجري
أسامي ..
انتبه الرجل الآخر فسقط كيس التبغ من يده ، تناول ببندقيته
وصوبها في اتجاه الأرنب الواقف عند ضفة النهر ، ثم أطلق النار ..
ارتفع صدر الأرنب عن الارض وصار مواجهها لطلقه الرجال الجالسين
ثم سقط في الماء ، فأخذ التيار يجرفه حتى غاب عن عيون الرجال ..
سأل الرجل :
- لماذا قتلته ؟

لم يجبه الرجل الآخر ، بل اكتفى بالنظر الى بقية الرجال
الذين اندهشوا .. فأحنى رأسه . كان يعلم جيدا ان الأسئلة شيء
غير معروف عندهم .. الأسئلة ملك الشيخ وحده ..
من بعيد كان وقع حوافر جواد يسمع .. امتدت أيدي الرجال
الى البنادق .. كل شيء يجري بألية تامة .. نظر الرجل الى أصابعه
المتقلصة ، نهض ، فنظر اليه الرجال ، قال :
- سأتسلق هذه الشجرة .

بان الفارس وأخذ يلوح لهم بمنديله ، لامست فوهات البنادق
الارض بوجوم ، ولون الفضب تعابير الوجوه ..
- سمعت صوت رصاصة ؟
.....
- متى تكفون عن لهوكم ؟
قال الرجل وهو يكسر أحد أفضان الشجرة التي تسلقها :
- انه الانتظار . اجلس .

- طلب الشيخ أن أصطحبك اليه ..

لم يقل شيئاً ، لأن مقابلة الشيخ تعني بالنسبة له الاستعداد لمواجهة المشاكل بالاتفاق مع الموت .. سار الرجل ، ثم التفت وودع بقية الرجال بنظرانه .. واتجه حيث مقر الشيخ ..

شعر ان الاشواك والاحراش المنتشرة على جانبي الطريق تزداد فسوة وهو يزيحها بيديه .. تذكر طفولته أيام كان يتسلق الجبل ، ذا الجبل الذي يفصله عن القرية ، كان سريعاً لذا كانوا يلقبونه بالهجل .. كانت الذكريات وهجا يسطع أمام عينيه المتعبتين ، ومن حين لآخر كانت عيناه تصطدمان بعيون الرجال المنتشرين حول المقر ، فتنتقل نظراته الى بنادفهم السريعة الطلقات التي تختلف عن بندقيته القديمة فيهمس :

- انهم حراس مقر الشيخ .

بعدها غامت عيناه وشعر ان أماله الحبيسة في صدره نصل يورق غضبا ..

الشيخ جالس في صدر الغرفة المنحوتة داخل صخور الجبل .. وحوله جلس الرجال بخشوع .. وما بين العين والعين تهمني الرهبة .. دخل الرجل ، التفت عيناه بعيني الشيخ الذي قال :

- انني اعتمد عليك .

تفحص الرجل الرجل الجالسين ، كانوا معجبين بالشيخ وفدريته ، يراقبون حركات شفثيه .. لم يقل شيئاً .

- ما هي أخبارك عن القرية ؟

شعر الرجل بان شيئاً يحدث (الشيخ يعتمد عليه ويسأله عن القرية . لماذا ؟ عيونك أيها الشيخ مزروعسة في جدران كل بيت ، وتسالني عن القرية) قال :

- لم أذهب اليها قبل أشهر ..

- وزوجتك ؟

فكر الرجل (آه ، هنا يكمن السؤال عن القرية .. ما بها أيها الوغد ؟) قال :

- انها تاتي أحيانا ..

- وكيف تعيش ؟

فكر (عندما طلبت مني الالتحاق بكم أما كنت تفكر بزواجتي ؟ وهل من جديد كي تسألني عنها ؟ لم أعود ان اكون جباناً ولكنني كنته اليوم أمامك) .

.....

قال الشيخ بغضب :

- انها تؤوي الجنود ..

حين خرج الرجل لم يبق في ذاكرته الا ان مسدسا القبي على صدره وصوت الشيخ يدوي في أذنيه :

أقتلها .. أقتلها .. أقتلها ..

انني اعتمد عليك .

الثلج :

تسلق الرجل الجبل الذي يفصله عن القرية .. كان يعرف صخوره جيدا .. فكر في رحلات الصيد والاصداق والنهر ، فكر بكل شيء كي لا يفكر بأي شيء .. أحاسيس متضاربة تتنابه ، يهمني الحزن كالضوء يعريره .. يرسم أمام عينيه صور الزوجة .. الشيخ .. الجنود . شعر انه ذهب ضحية أحزان لم يكن له مهرب منها ، فهمس بصوت خافت :

- انها الحرب ..

عندما اقترب من القرية كان الهواء باردا والبيوت متنسائرة بكابة على السفح .. الظلام دامس وأنوار البيوت مطفأة تحكي قصة القهر الطويل الذي عانته .. شعر الرجل بحنين جارف الى زوجته ،

الى الحفل ، الى البيت ، الى القرية كلها التي هجرها تنفيذاً لأوامر الشيخ ..

أصوات الكلاب قطعت عليه تأملاته .. فهرب متسنرا بجدران البيوت .. فز على سطح بيته وأخذ يزحف على بطنه .. وانحسرة الراب تزكم أفه .. والدموع تنساقف من عينيه . نزل بهدوء السى ساحة البيت ، رأى ضوء الفانوس المعلق في الغرفة .. كانت زوجته نائمة وعلى وجهها العذب فرأ ذرياته معها عندما أراد ان يخطفها حين رفض والدها زواجه بها ، كانت مستعدة للموت معه .. لكن رجال القرية تدخلوا فوافق الوالد .. نحس موضع المسدس ثم أخرجه ، أغمض عينيه وأراد ان يعجز رأسها .. لكنه تراجع ، ذكر الشيخ ..

انني اعتمد عليك ..

اعتمد عليك ..

انتي ..

الشيخ .

وبرقى وضع راحه فوق جبين زوجته .. صرخت .. أسرع فوضع يده على فمها وهمس :

- أنا زوجك ..

نهضت ، ولما رآته فربت الفانوس وباملت ملامحه .. تذكرت الجندي ففترت وقالت :

- أجانع أنت ؟

كان الصمت يكفنه ..

- ما انذي جاء بك ؟

.....

شعرت ان سيئا ينوهج في عينيه فتراجعت الى ان أصبح ظهرها لصق الجدار .. تقدم الزوج .. أمسكها من صغيرتها الطويلة ورمها على الارض .. صرخت .. هددها .. كان الفزع يلون وجهها الصغير العذب وهي ترتمس بين يديه .

- أنت تؤوين الجنود ..

- أنا ؟ من قال لك ؟

عندها تهتلت صورة الشيخ أمام عينيه ، صرخ :

- أيها الشيخ . يا رعبا يملكني وقيدا يسكنني ، ارفع يدك ، كل شيء يذكرني بك ، سأقتلك ..

فالت المرأة :

- لم أفعل شيئاً ..

- أنت ؟

- كنت وحيدة وخائفة .. لماذا رحلت ؟

.....

- لماذا ؟ انني أموت كل يوم ، وأنت مع الشيخ .. لماذا ؟

- يجب أن أقتلك ..

- أنت جبان .. نفذ أوامر سيدك .

شعر انه يتعري أمام انسياب الغضب من مقلتي زوجته ، دارت عيناه في أرجاء الغرفة .. سقط المسدس من يده ، وارتدى على السرير .. تقدمت الزوجة بهدوء ، رفعت رأسه ووضعتة على صدرها ، كانت أصابعها تمسده شعره الكث .. فتح عينيه ، سقطت دموع زوجته على وجهه ، شعر بخدر لذيذ .. وناما معا .

استيقظا على صوت الثلج وهو ينقر زجاج النافذة .. نهض الزوجان واقتربا من النافذة ، أخذت أنفاسهما الحارة تلمس الثلج على النافذة .. أغمض الثلج عيونهم وانسحب كفتاة عذراء .. ومن خلال البقعة التي انسحب منها الثلج بان الأفق . كان مدى من الثلج يگسو كل شيء .. يفسل كل شيء ..

وكان الربيع طائرا يفرع كل الابواب ..

أمجد توفيق

الموصل